مقدمة الكاتب

للمرة الثانية في تاريخ الإسلام يجد العالم الإسلاميُّ نفسَه دون خليفة. فقد أعلنت الجمهوريَّة التركيَّة عشيَّة انتصارها الحاسم أنها لم تعد قادرةً على الاضطلاع بالمسؤوليَّة التي كانت تقوم بها الإمبراطوريَّة العثمانيَّة لعدَّة قرونٍ. هكذا أصبحت مسألة الخلافة قضيةً معاصرة حادَّة. تناولتُ في هذه الدراسة هذا الموضوع من وجهة نظرٍ مزدوجة: مذهبيَّة وتاريخيَّة. ولا أزعم أنني بريءٌ من كلِّ حكم مسْبق أو انحياز عاطفيٍّ في معالجتي لموضوع مثيرٍ للحماس، حيث لاً يكون لمحاذير البيئة والارتباط الغريزيِّ بالتقاليد العتيقة أَثَرٌ في طريقة المعالجة حتى بالنسبة إلى أكثر العقول حرصًا على الحياد. بل أعترف أيضًا أنني منذ حداثة سنِّي لم أستطع أن أقاوم تعلُّقي الواضح بكلِّ ما هو شرقيّ، وأنني أوليتُ اهتمامًا عميقًا لدراسة الحضارة الإسلاميَّة التي أكنُّ لها الإعجابَ والتقدير. لكنني حاولتُ في هذا العمل أن يكون عملي علميًّا قدر ما استطعتُ. فقد التزمتُ الموضوعيَّة، وحاولتُ التحكُّم في العاطفة لكي لا تطغى على الحقيقة. إنني لا أقصد الحقيقة المطلقة بالتأكيد؛ نظرًا لأن تلك الحقيقة ـ على فرض وجودها ـ لم تُكتَشَف بعدُ. فنحن في المجال الاجتماعيِّ على الأخصِّ نتناول المشكلات بطريقةٍ فطريَّة في ضوء عقليتنا العرقيَّة، أو ندرسها بعقليَّة عصرنا التي تتأثَّر بدورها بمؤثراتٍ عديدة ناتجة عن أوضاعنا الحضاريَّة الخاصَّة. فعندما أعلن أرسطو أن الرقَّ نظام ضروريٌّ(*)، فإنه كان يعبِّر بالتأكيد عن الفكر الجماعيِّ لعصره، وكان يعبِّر عن **إحدى حقائق** العصر الذي كان ينتمي إليه.

(*) قسَّم أرسطو المجتمع اليونانيَّ إلى قسمين: الأشخاص إلى الرجال الملَّاك، والأشياء إلى النساء والعبيد والحيوانات. (المحرر)

لقد واجهتني في أثناء هذا العمل صعوباتٌ جمَّة كان يجب عليَّ تذليلها، بعضها صعوبات عمليَّة؛ إذ تتطلَّب دراسة هذا الموضوع: التوفيقَ بين احترام الحقيقة العلميَّة وتدبير بعض الحساسيَّات المشروعة؛ ووفرة الوثائق التي لا ينضب معينها تقريبًا[1]؛ وصعوبة نقل أفكارٍ من لغةٍ إلى أخرى بكل الدقَّة التي تتمتَّع بها في لغتها الأصليَّة[2]؛ وضرورة أن يكون المرء واعيًا ومحيطًا بما يدور في العالم الشرقيِّ يومًا بيوم؛ وأخيرًا مراعاة التزام كلِّ دارسٍ للفقه الإسلاميِّ بأن يكون له منهج شخصيٌّ في تصنيف وترتيب الأفكار التي تعطي للباحث في القانون المُدَّرب على استخدام المناهج العلميَّة الحديثة الانطباعَ بأنه قد قُذِفَ به في خضمِّ أعمال الفقهاء المسلمين دون أيِّ محاولة للترتيب المنطقيِّ.

وإذا كنتُ قد نجحتُ بطريقةٍ أو بأخرى في هذا الصَّدد، فإن الفضل في ذلك يعود إلى الإرشاد المستنير والتوجيهات الحكيمة التي أسداها لي أستاذي إدوارد لامبير. حيث تفضَّل هذا الأستاذ بالموافقة على الإشراف على عملي بالنظر إلى ألفته مع العبقرية الشرقيَّة بسبب اتصاله الطويل بالثقافة الإسلاميَّة، وهي ألفةٌ مشبعةٌ بتعاطف عميقٍ مع ما يخصُّ الإسلام ومصر التي قضى فيها شطرًا كبيرًا من شبابه وخصَّها بالكثير من نشاطه العلميِّ. وقد شجَّعتني نصائحه على تثبيت أقدامي فوق أرضٍ رخوة ولزجة. وكان من الحتميِّ ظهور اختلافات في وجهات النَّظَر بيني وبينه حول موضوعٍ لم يكن بدٌّ من أن تتسلَّل إلى فهمه خفيةً خصائصُ ذاتيَّةٌ دقيقةٌ، حتى في الدراسات التي تقودها رغبةٌ كبيرة في الوصول إلى الموضوعيَّة؛ بيد أن تلك الخلافات في الآراء والتوجُّهات، التي شكَّلت موضوعًا لنقاشات تمهيديَّة مفيدة، لم تمنع الدكتور إدوارد لامبير إطلاقًا من إعطائي الحرية الكاملة في التعبير عن آرائي.

يبدو أن **مدرسة لامبير** المصريَّة، التي تضمُّ أتباعًا يزداد عددهم بشكلٍ دائم، ستنتهي بالتنكُّر للتقاليد النفيسة لهذا الأستاذ إذا تخلَّى أعضاؤها عن

(١) أتوجَّه بالشكر هنا لأصدقائي بالقاهرة ولندن الذين أسدوا إليَّ خدماتٍ جليلة، وذلك لإمدادي بوثائق عربيَّة وإنجليزيَّة كنتُ بحاجة إليها.

(٢) لقد استفدتُ كثيرًا من ترجمة «الأحكام السلطانيَّة» التي قام بها الكونت ليون استرورج، والتي تأكدتُ بعد مناظرتها بالنصِّ الذي تحت يدي من أنها ترجمةٌ في غاية الدقَّة.

تحمُّل نصيبهم من المسؤوليَّة الفرديَّة عن العمل الجماعيِّ العلميِّ، وإذا خفَّفوا من غيرتهم على الاستقلال المطلق لفكرهم العلميِّ، وهي الميزةُ التي جعل منها لامبير ـ صانع العقول القانونيَّة ـ خاصيةً مشتركةً بين طلابه.

يضمُّ الجزء المذهبيُّ من هذا العمل نظريةَ الخلافة كما صاغها فقهاء الإسلام. وكان عليَّ أن أتوسَّع في بعض الموضوعات التي عادةً ما يتمُّ تناولها بصورةٍ مختصرةٍ، وألقي الضوء على بعض النقاط الغامضة، وأحاول قدر الإمكان سدَّ الثغرات التي يمكن أن تجعل المذهب غير ملائم للواقع. وقد بدا لي من الأهمية بمكانٍ ألا أهمل التاريخَ الطويل لنظام الخِلافة غير المنضبطة، وأن أميِّزه بعنايةٍ عن نظام الخلافة التامَّة؛ حتى يَمكن أن نفهم كيف اشتغل الحكم الإسلاميُّ بشكل فعليٍّ خلال ثلاثة عشر قرنًا، وأن نكتشف الوسائل لحلِّ مشكلة فراغ منصب الخلافة في المستقبل. ولقد حاولتُ في أثناء عرض نظامي الخلافة غير المنضبطة والتامَّة أن أورد بمنتهى الأمانة فكرَ المؤلفين المسلمين، متجنِّبًا خلط أفكاري الشخصيَّة بما توصل إليه الفكر الإسلاميُّ.

وفي الجزء التاريخيِّ من هذه الدراسة، كنتُ مضطرًا إلى أن أنتقي عن هذا الموضوع بعضَ المواد التي تشتمل عليها الكتابات الكثيرة، الإسلاميَّة منها والأوروبيَّة، التي كان طابعها المعقَّد سيمنعني من أن أستخلص من بحثي نتائجَ دقيقةً لو أنني دخلتُ في تفاصيلها. وقادني انشغالي بأن أستخلص من هذا الاستعراض التاريخيِّ معلوماتٍ ذات طبيعةٍ عمليَّة إلى تقديم مقترحاتٍ ملموسة قد يعتبرها البعضُ مقترحاتٍ غير واقعيَّة. ولم أتردَّد في اقتراح حلولٍ جريئة من قبيل إنشاء «عصبة أُمَم شرقيَّة»؛ لأنني واثقٌ في مستقبل الشرق. إذ يمكن لحلم اليوم أن يصبح حقيقة غدًا. فقد كان يوجد في القرن الثامن عشر حالمون، أمثال الأب سان بيير **Saint-Pierre**، الذين راهنوا على إمكانية بناء مجتمعٍ عالميٍّ نراه الآن على وشك التشكُّل في جنيف(*)؛ نظرًا لأن القرون تمثِّل زمنًا قصيرًا في حياة الأُمم.

(*) تأسَّست عصبة الأُمم عقب مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م، وهي أول منظمة أمنٍ دوليَّة هدفت إلى الحفاظ على السلام العالميِّ. وصل عدد الدول المنتمية لهذه المنظمة في تشكيلها النهائيِّ إلى ٥٨ دولة، وذلك خلال الفترة الممتدَّة من ٢٨ سبتمبر ١٩٣٤م إلى ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٥م. (المحرر)

إلا أن نهوض الشرق لا يحتاج فقط إلى رجالٍ أكفاء ونشطاء؛ بل وبصورةٍ خاصَّة إلى زعماء يعرفون كيف يضحون بمصالحهم الشخصيَّة من أجل الصَّالح العام. إن الزعماء الذين يعملون من أجل تحقيق فكرةٍ عظيمة؛ أي: إحياء ثقافتهم التاريخيَّة، يجب أن يكونوا ـ كما قال الشاعر الفارسيُّ ـ: «شمعة تحترق لكي تضيء».

أتحدَّث في هذا البحث كثيرًا عن الإسلام. بيد أنني لا أقصد به هنا متنًا من العقائد الدينيَّة الخالصة. وبوصفي مسلمًا، فإنني أرتبط بالدين الإسلاميِّ ارتباطًا صادقًا، وأكنُّ له أعمقَ الاحترام. إنني أهتمُّ في هذه الدراسة بالإسلام بوصفه ثقافةً وليس بالإسلام الثقافيِّ. والإسلام الذي نشأ في جوار ديانتين عظيمتين اليهوديَّة والمسيحيَّة، يحمل أسمى المبادئ الأخلاقيَّة، فهو أحد أكثر الأديان العالميَّة نُبْلًا، الذي لم تعرف له الإنسانيَّة نظيرًا. لكنه ليس هذا فحسب؛ إنه حضارةٌ أيضًا. فمَنْ يؤمن بمعتقداته هم المسلمون، ومَنْ يتشبَّثون بثقافته هم المواطنون. إن الحضارة الإسلاميَّة، التي كان اليهود والنصارى من بين صنَّاعها إلى جانب المسلمين، هي النظام الاجتماعيُّ الذي عاش الشرق في ظلِّه لقرونٍ عديدة. وعلى هذا الأساس، فإن الإسلام يتداخل مع الشرق، وعندما أتحدَّث عن الأول فإنني أقصد الثاني أيضًا. فقد عاش مفكِّرون أحرار وفلاسفة وأطبَّاء وعلماءُ طبيعةٍ وعلماء دينٍ ورجالُ قانونٍ في ظلِّ الثقافة الإسلاميَّة جنبًا إلى جنبٍ كأسرة واحدة. هذه الثقافة التي أنجبت ابن سينا والغزَّالي هي ما أتمنَّى أن تنهض من جديدٍ بأشكال جديدة. هذا هو إسلام الأمس، وهو أيضًا إسلام الغد.

أعتقد أن نهضة الشرق ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنهضة الإسلام الذي أعتبره إحدى الحضارات التاريخيَّة في الشرق ـ إنه أكثر هذه الحضارات تأثرًا بالطابع التقليديِّ للعبقريَّة الشرقيَّة.

هل سيكون العصرُ الجديد الذي بدأ لتوِّه إيذانًا بشروق الشمس من جديدٍ على الشرق الغارق في الظلام؟ وهل سيستعيد الإسلام طاقتَه باعتباره عاملًا أساسيًّا في حركة نهضتنا؟ هل سيكون بإمكاننا القول مرةً أخرى: الشرق بالإسلام، والإسلام من أجل الشرق؟